الكتب

العـــراق

نقد لكتاب جغرافية العراق

تأليف الفريق طه باشا الهاشمي

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

صديقنا الفريق طه الهاشمي باشا مدير معارف العراق سابقا ورئيس أركان حرب جيشه حالا ، نسيج وحده اليوم في الجمع بين أدب السيف وأدب القلم ، توفر على الاصلاح المنتج الصامت من طريق التعليم والتأليف ، ورضي من سعادة العيش ومتاع الحياة بشرف الدفاع عن الوطن ولذة الجهاد في سبيل العلم ، فلم يدخل في فتنة ، ولم يساهم في حزبية ، ولم يوزع همه وجهده الا على مكتب في وزارته ، ومكتب في بيته . ومن يطلع على ثبت مؤلفاته في التاريخ والجغرافية وفنون الحرب لا يسعه الا اكبار هذا الرجل . وهذا كتاب جديد اسفر عنه عزمه في جغرافية العراق سيحدثك عنه صديقنا الدكتور محمد عوض ، والدكتور عوض استاذ هذا العلم كان في الجامعة المصرية ثم في مدرسة التجارة العليا ، فحديثه عن الكتاب ثقة ، وشهادته للمؤلف العاضل أصدق

المحرر

إن حديث العراق يثير في النفس أحاسيس لا سبيل إلى دفعها ، وظمأ لا سبيل الى ريه . ويبعث أمام العين صوراً قوية جذابة ، ويحرك في القلب شجناً وأي شجن . ويثير في الخاطر ذكرى عهود وأي عهود ! ، فهات الحديث إذن عن الزور أو عن هيت ، وعن سامراء وتكريت ، وعن الموصل وكربلا ، وعن البصرة والكوفة ! أو اعد بهذا الحديث ذكرى ذلك العهد الجليل ، كان عهدا جليلا للناطقين بالضاد ، وكان عهدا جليلا لبني الانسان كافة — أيام كان الوطن العربي كتلة واحدة ، كأنه العقاب الهائل باسطا جناحيه على المشرق والمغرب ، أيام كان هذا الوطن العربي هو في العالم كل شيء وما سواه ليس بشيء ، أيام لم يكن في العالم نور سوى ما ينبعث من نبراسه ، ويضيء ارجاءه . ولم يكن في الدهر كله راية أسمى ، ولا منار أرفع من هذه الراية الاسلامية التي تظل تلك الاقطار الفسيحة الكثيرة ، من المحيط الاطلسي الى أقصى بلاد الصين ، حين كان سائر العالم يتخبط في دياجير من الجهل لا يعرف لنفسه منها مخرجا .

في ذلك الزمن كان السائح المتجول ينتقل من القطر الى القطر ويتجول في الاقليم بعد الاقليم ، وما ينتقل من وطن إلا لينزل في وطن ، فحيثما سار ، وأينما حط رحاله ، لن يخرج عن الوطن العربي الفسيح ، سواء أصعد أم أسهل ، وأتهم ام أنجد .

وكانت هذه الاقطار كالعقد المنظوم ، انبسطت حياته على محيا البسيطة ينتظمها جميعا سلكان ذو قوة ومتانة يرغم أنف الزمان ، وهما الدين الاسلامي واللسان العربي

وليس من شك في ان للعراق في هذا العقد منزلة خاصة . ولئن لم نقل أنه واسطة ذلك العقد ، لاننا لسنا في مقام المفاضلة . فلا أقل من ان نؤكد ان العراق جوهرة ثمينة براقة في ذلك العقد النظيم الذي لم يشهد الدهر له ضريبا .

***

على أن صورة الدولة الاسلامية ليست الصورة الوحيدة التي يثيرها حديث العراق . هذه صورة يهتم لها العالم الاســـلامي ، والناطقون بالضاد . ولكن هنالك صورة أخرى تعني العالم كله ، لا فرق بين شرقه وغربه ، ومسلمه وغير مسلمه . وهي صورة العراق أيام كان مهد الحضارة الأولى . في أقدم عصور التاريخ . فهنا ، في سهول دجلة والفرات ، نهضت حضارة سومر وأكاد قبل ميلاد المسيح باربعين قرنا ، أيام لم يكن في العالم كله ثقافة ولا حضارة ، اللهم الا في الوادي الشقيق الذي نعيش فيه .

إن هذه الحقيقة وحدها لكافية لأن تثير في قلب كل إنسان شغفا بالعراق الذي كان مهدا لكل هذه الحضارات ، والذي ظل عامرا زاهرا كل هذا الدهر الطويل ، الذي يتعامل بجانبه عمر هذه الدويلات المحدثة ، التي ملأت عصرنا هذا عجيجا وضوضاء .

***

اذن ... الى أسباب عدة لأن نعنى بدرس جغرافية العراق

دراسة خاصة . وأخلق بنا — نحن مدرسي الجغرافيا — أن نذكر هذا أبدا ، وأن نكون دائما على استعداد — في مقام التمثيل والاستشهاد — لذكر البلاد الشرقية والديار العربية . فاذا كنا نتحدث عن الأنهار وجغرافيتها ، فلا ننس أن نذكر أنهار الشرق: دجلة والفرات ، وسيحون وجيحون والأردن والعاصي ، ولا نكتفي بذكر الرون والرين ، والصون والسين .

على أن الكتب العربية الحديثة التي وفت هذه الموضوعات حقها من البحث قليلة جدا ، والمشتغلون بالجغرافيا في البلاد العربية — وعلى الأخص في مصر — قلما يكتبون ابتغاء وجه العلم ، بل يكتب اكثرهم ابتغاء عرض الحياة الدنيا . ولهم في ذلك أعذار مقبولة وأخرى غير مقبولة ، وعلى كل حال لقد اصبحنا في مصر — مثلا ولدينا عشرات من الكتب (المقررة) للمدارس الابتدائية وغيرها ، وليس لدينا كتاب واحد حديث يفصل لنا جغرافية مصر تفصيلا علميا متقنا

لهذا كانت دهشتي عظيمة حين تناولت كتاب (جغرافية العراق) تأليف الفريق طه الهاشمي باشا ، رئيس أركان حرب العراق . فرأيته يتناول جغرافية العراق بالبحث المفصل الواضح ، لم يغادر ناحية من نواحي علم الجغرافية الحديث الا عالجها في قدرة فائقة تشهد بالفخر لمن كانت حرفته الجغرافيا . فكيف والكتاب من انتاج رجل حرفته الأولى تعبئة الجيوش ، ورسم الخطط الحربية ، وتدبير المعارك الحاسمة ؟

ولئن كنا مضطرين الى اكبار هذا الجهد الفائق والى الاعجاب الشديد به ، فانه يحق لنا أن نعجب كيف بدأ التأليف الجغرافي بالعراق ناضجا كاملا على هذا النحو من غير إرهاصات ولا مقدما . ولا دون نشوء ونمو . اللهم إلا أن تكون هنالك مؤلفات سابقة ليس لنا بها علم .

وكل مطلع على هذا الكتاب عن له أقل خبرة بالتأليف الجغرافي لابد ان يدرك ما عاناه المؤلف في جمع كل هذه الاحصائيات الدقيقة ، وفي اخراج هذه المصورات المتقنة . خصوصا اذا ذكرنا أنه يطرق أبوابا جديدة ، ويعالج أمورا لم يعالجها المؤلفون قبله . ويسير في سبيل لم تمهد ولم تعبد

* * *

ان العراق هو أشد أقطار العالم شبها بمصر ، ويكاد تكون أمطاره في بعض نواحيه أغزر منها في وادي النيل ، غير أن العراق يعتمد

قبل كل شيء على ماء أنهاره كما تعتمد مصر على نيلها . وللعراق نهران يكاد ذكر اسميهما أن يكون من الفضول : دجلة (الفتاة) التي تجري في شطره الشرقي ، والفرات (الفتي) الذي ينساب في الجانب الغربي . كلاهما يبدأ مجراه في جبال أرمينية . وكردستان وليس بين منابعهما مسافة كبيرة . فامادجلة فتنحدر مسرعة أو متسرعة — كسائر الاناث لا تلتفت يمينا ولا يسارا ، بل تجري معجلة الى البحر (خليج العجم) . واما الفرات فيسيل مغربا حتى يدنو من بلاد سورية . وكأنما كان يريد أن يتجه الى البحر الأبيض ثم غير رأيه ، أو كأنما أراد أن يطل على القطر الشقيق ليقرئه السلام ، ثم يلتوي بعد ذلك في هدوء ورزانة ، ويولي وجهه شطر العراق ، ولا يزال يجري هو أيضا حتى يصل الى خليج العجم ، لكن في شيء من التؤدة والتأني ، وفي منتصف الطريق بين المنبع والمصب يشتاق الفرات الى دجلة فيأخذ في الاقتراب منها ، وفي هذا الجزء الأوسط من العراق يقترب النهران حتى لتظن انهما سيجتمعان . فلا يفصلهما غير مسافة أربعين كيلومترا . وفي هذا الموضع قد احتشد كثير من مدن العراق الشهيرة قديما وحديثا . فهنا نجد آثار بابل ومدائن كسرى ، ونشاهد بغداد الزاهرة وكربلاء المقدسة . كلها في هذه المنطقة التي يتدانى فيها النهران ، على ان اجتماعهما لا يتم بعد ، بل يتباعدان مرة اخرى — ثم يلتقيان بعد لأي عند القرنة ، فيكون منهما نهر واحد هو شط العرب الذي ينحدر الى خليج فارس .

هذان النهران هما رأس مال العراق وينبوع ثروته فمنهما ماؤه الذي يسقيه ، ومنهما تربته الخصبة التي يعيش أهله من ريعها ولقد تكون سهل العراق الفسيح مما حملته هذان النهران من الرواسب والطين . فاستطاع السهل الخصب أن ينمو ويمتد الى البحر ، حتى أصبح خليج فارس أصغر مما كان عليه حتى في العصور التاريخية . ولا يعرف في العالم كله سهل نهري يزداد نموه بسرعة تعادل سرعة نمو سهل العراق . فهنا يتقدم البر وينكمش أمامه البحر بسرعة معدومة النظير ، ولهذا كانت أرض العراق في عصر السومريين أصغر مما هي اليوم . بحيث كانت المدن السومرية القديمة : أور واردو ولا جاش واقعة على البحر أو قريبة منه .

* * *

وهكذا يعرض المؤلف أمام أعيننا صورا شائقة ممتعة لجغرافية العراق . ويعرضها في ترتيبها المنطقي المتسق . فتراه في الفصول الأولى يشرح موقع البلاد بالنسبة لما جاورها من الاقطار ثم يأخذ في شرح التكوينات الجيولوجية ، وكيف تكونت أرض العراق

فى الازمنة الجيولوجية ، ثم ينتقل الى وصف تضاريس البلاد وما بها من سهول مطمئنة ، وجبال شاهقة تفصل ماءينه وبين بلاد الترك والفرس . ثم يصور لنا مجرى النهرين العظيمين تصويرا دقيقا ، حتى نكاد نراهما ونلمسهما ، ويبين لنا كيف يفيضان ، ومقدار ما يجرى فيهما من الماء ، وفى أى الشهور يفيض ، او يغيض الماء ثم ينتقل بعد ذلك الى دراسة المناخ والنبات والحيوان ...

وبهذا يكون المؤلف قد أكمل الصورة الطبيعية للبلاد فى كافة نواحيها ، وهنالك يصبح ذهن القارىء مهيأ لان ينتقل من البيئة الى السكان ، ومن الجغرافيا الطبيعية الى الجغرافيا البشرية

والناحية البشرية تحتل الشطر الاكبر من الكتاب ، ويحق لها ان تنال كل هذه العناية . فنرى المؤلف يمعن فى ذكر القبائل ومواطنها ، وحاضرها وباديها . وكيف تنتقل من موطن الى موطن ، وبعضها قد ينتقل من العراق الى فارس أو تركيا أو سوريا فى بعض الشهور ، ثم يعود الى العراق فى شهور أخرى .

ومن أفضل أبواب الكتاب تلك الفصول التى يشرح فيها المؤلف الجغرافيا الاقتصادية فى العراق ، ويبين للقارىء طرق الزراعة والرى والمعادن والتجارة ، وطرق المواصلات على كافة أنواعها .

ولن يتسع المقام هنا للافاضة فى ذكر فصول الكتاب . وحسب كل مشتغل بعلم الجغرافيا أن يعلم أنه قد بات فى متناوله اليوم كتاب واف عن جغرافية بلاد نحن فى أشد الحاجة الى ان نلم بجغرافيتها إلماما صحيحا دقيقاً .

وسيجد القارىء المصرى صعوبة فى فهم بعض المصطلحات العلمية . لأنها فى كثير من المواضع قد تخالف ما اصطلح عليه المشتغلون بالجغرافيا فى مصر . ولكن لن يلبث القارىء طويلا حتى يعتاد لغة الكتاب ومصطلحاته . وانا لنرجو على مدى الزمن أن تزداد المؤلفات الجغرافية العربية ، فنستطيع بمبادلة الرأى أن نوحد المصطلحات العلمية فى اللسان العربى .

ولا بد لنا أن نذكر بشىء كثير من الثناء ما اشتمل عليه الكتاب من خرائط ملونة وغير ملونة . وكثير منها من نوع فريد لا يسهل العثور على مثله . ولنذكر على سبيل المثال الخرائط التى تبين مناطق الزراعة ، وكثافة السكان ، والأجناس والشعوب والقبائل . والكتاب مفعم بالصور التى توضح جميع نواحى البحث فى الكتاب كله .

ونحن نهنىء المؤلف الفاضل بجهوده المثمرة . ولا نشك فى أنه ماض فى عمله الجليل ، حتى يشق فى بحثه الجغرافى سبلا جديدة . وتزداد مؤلفاته الجغرافية عددا واتقانا على اتقان . . إن رجال الجيش طالما أدوا الى علم الجغرافيا خدمات جليلة ومن ذا الذى لا يسره أن يرى اسم هذا القائد العربى بين اسماء من خدموا الجغرافيا وأحسنوا الى المشتغلين بها ؟

« عرض »

وجه صالح للسينما

(بقية المنشور على صفحة ٣٨)

صرفت دريجالسكى أول نقود نالتها فى اجرة طبيب . ثم صرفت ما كسبته بعد ذلك فى جنازة زوجها ودفنه . وتحسنت الاحوال بعد موت هذا الزوج . فقد كانت تخشى ان تترك ابنها المعتوه فى البيت لئلا يعبث بالكبريت . اما الآن فقد اصبح فى وسعها أن تودعه مصحة للأمراض العقلية ، ولم يبق معها بعد ذلك الا القليل من النقود ومع هذا فقد استشعرت الراحة والاطمئنان لقد كانت مدفونة تحت أطلال حياتها التعسة وأحست اليوم انها تستنشق الهواء ، وهجرت مهنتها الاولى كغسالة . ومع ذلك فقد ساق اليها حظها الجديد رجلا يستأجر غرفة فى بيتها .

وهو انتون بوش الاعزب الذى كان يبيع المثلجات فى الشارع وكانت دريجالسكى ترى فيه رجلا ظريفا ، وحسدها الجيران لنجاحها فى فن السينما ، واعتزت بنفسها اذ ادركت منهم ذلك الحسد . وكان المستر بوش يدفع لها اثنى عشر ماركا فى الشهر ويدفع نصف أجرة الغاز وكان كريما شديد الاخلاص لها وقد ابتاع لها فستانا من الحرير الازرق وكانت تطهى له الطعام بنفسها وتقدم له شطائر ليتناول منهـا طعامه فى جو لائه . وانك لتدرك من ذلك ان غذاءها هى نفسها قد تحسن كثيرا وزالت التجاعيد عن وجهها شيئا فشيئا وقد بلغت الآن قمة النجاح واصبح اسم دريجالسكى اسما يردده المخرجون !

التتمة فى العدد القادم

محمود عزى

مجموعة السنة الاولى

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الاولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجرة البريد